مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

دراسات

جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ /
ديسمبر ٢٠٢٥م
٨٧

نظرة عامة على التطور الثقافي في أطراف الصحراء العربية الجنوبية الغربية

الدكتور عبد الله المصري
والدكتورة مارتينا رينزي

نظرة عامة على التطور الثقافي في أطراف الصحراء العربية الجنوبية الغربية

الدكتور عبد الله المصري
والدكتورة مارتينا رينزي

ⓒ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٤٧هـ

المصري ، عبد الله
نظرة عامة على التطور الثقافي في أطراف الصحراء العربية الجنوبية الغربية. / المصري ، عبد الله ؛ رينزي ، مارتينا .- الرياض، ١٤٤٧هـ

٣٢ ص، ١٦,٥ x ٢٣سم (دراسات؛ ٨٧)

رقم الإيداع: ١٤٤٧/١١٤٧٣
ردمك: ٩٧٨_٦٠٣_٨٣٦٠_٧٨_١

إخلاء مسؤولية

تُعبِّر جميعُ محتويات هذه الدراسة عن وجهة نظر كاتبها، ولا تُمثِّل بالضرورة وجهة نظر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

المحتويات

مقدمة	٦
ثانيًا: النهج البيئي للثقافة	٨
ثالثًا: نظرة عامة على جنوب غرب شبه الجزيرة العربية القديمة	٩
رابعًا: نهضة الحضارة وازدهارها في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية	١٦
خامسًا: الخاتمة	٢٤

مقدمة

لعلم الأنثروبولوجيا، بوصفه تخصصًا يركز على الدراسة العلمية للمجتمعات البشرية وتنظيمها من خلال التفاعلات والتجمعات، دور مهم على الدوام في دراسة الحضارات القديمة. لكن، هذا الفرع من فروع المعرفة يميل في كثير من الأحيان إلى استخلاص استنتاجات تستند في المقام الأول إلى التحليل المقارن، والذي قد يجازف بتجاهل الأدلة الميدانية لتركيزه على الجوانب المشتركة لتفسير تشكّل المجتمعات وتحولاتها وتطورها، وخاصة تنامي تركيباتها وتعقيداتها الاجتماعية.

ولفهمٍ أدقّ لكيفية تشكّل الحضارات والثقافات القديمة، ينبغي تحليل جميع العوامل التي تساهم في تشكيل مجتمع معين ضمن سياقاته التاريخية والثقافية والبيئية. وينبغي النظر إلى هذه العوامل بوصفها مكونات لنظام معقد يتطلب نهجًا شاملاً لفهم تلك الظاهرة.

في رأينا، أنّ الاتصال بالبيئة والتواصل بالمحيط في الأنثروبولوجيا (دراسة علم الإنسان) يفسران بشكل أفضل كيف تنشأ المجتمعات والثقافات البشرية من خلال التكيف مع الظروف البيئية المحددة (سيمور سميث ١٩٨٦، ٦٢). ويخلق التأثير المتبادل بين السكان البشر والبيئة (سالزمان وأتوود ١٩٩٦، ١٦٩) علاقاتٍ معقدةً فريدةً من نوعها في جميع المواطن التي تحدث فيها هذه التفاعلات. وتُعدُّ هذه المقاربة ذات أهميةٍ خاصةٍ لفهم تشكّل الحضارات القديمة في شبه الجزيرة العربية.

ورغم الجهود الأكاديمية الحديثة لتعميق المعرفة بتاريخ المنطقة العربية (انظر، على سبيل المثال، موتون وسكيتيكاتي ٢٠١٤، وفرانكي وجيرلش ٢٠١١، وماجي ٢٠١٤، وغيرهم)، إلا إنها لا تزال غير مدروسة بشكل كافٍ مقارنة بمناطق أخرى في الشرق الأوسط. وقد نتج هذا التواني في الجهود إهمال وإجحاف طال أمدهما تجاه المنطقة العربية بوصفها «ملحقاً مهملاً» للشرق الأدنى، بخلاف منطقة الهلال الخصيب الأكثر شهرة، على الرغم من أن تفردها وأصالتها كانا واضحين منذ بداية سُكناها (كون ١٩٤٣، ١٨٧؛ توسي ١٩٨٦، ٤٦٢). ربما تكون شبه الجزيرة العربية هي المنطقة القاحلة الوحيدة حيث طورت مجموعة من الصيادين والمزارعين أنماطًا فريدة من التداخلات والتفاعلات الاجتماعية على مدى بضع آلاف من السنين، ما أدى إلى نشوء

نظام قادر على التكيّف في ظل اقتصاد قائم على الكفاف. هذا النظام كان استجابة لموارد المنطقة المحدودة، ما أفضى إلى أنماط ديناميكية للغاية من العلاقات الاقتصادية والتفاعلات البشرية، وما جعل شبه الجزيرة العربية مثيرة للاهتمام للغاية لإجراء المزيد من الدراسة وتطبيق المناهج الأنثروبولوجية في دراسات الحضارات القديمة (توسي ١٩٨٦، ٢٤٦١-٤٦٢).

تُركز هذه الدراسة على تحليل المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية (الشكل ١)، والتي لم تخضع لدراسة شاملة مقارنةً بمناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية. ينقسم جنوب غرب شبه الجزيرة العربية سياسيًا في الوقت الراهن إلى أجزاء تتقاسمها كل من المملكة العربية السعودية (عسير ونجران)، واليمن، وجزء صغير من عُمان (ظفار). وتُشكل صحراء الربع الخالي، المعروفة أيضًا باسم الربع الخالي، حاجزًا جغرافيًا وثقافيًا بين المنطقتين الشمالية والجنوبية (كون ١٩٤٤، ٣٨٥).

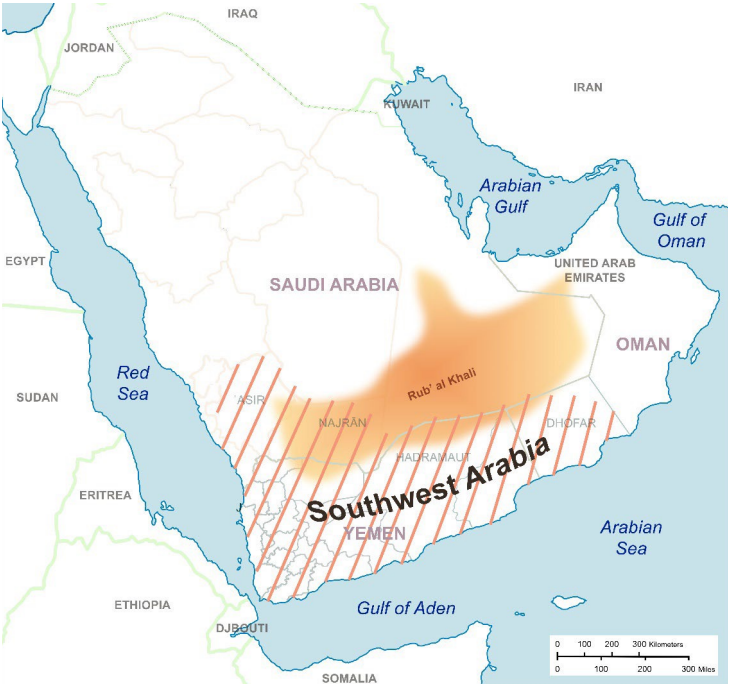

الشكل ١. خارطة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية

ثانيًا: النهج البيئي للثقافة

عندما نتحدث عن نهج بيئي لثقافة أو حضارة ما، فإننا نشير عادةً إلى نظرية تنظر إلى البشر بصفتهم كائنات حية ذات سلوكيات ثقافية محددة، ضمن سياق البيئة التي يُعبّر فيها عن هذه السلوكيات. يثير هذا المفهوم عدة أسئلة:

- ما هي الآليات التي تعمل في ميدان معين من التفاعل بين الإنسان وبيئته؟
- كيف وإلى أي مدى تسهم الظواهر البيئية في تشكيل القدرات البشرية أو تغييرها أو الحدّ منها، وبالعكس؟
- ما هي أنواع عمليات التكيف والتّأقلم الموجودة في بيئة معينة، مع الأخذ بالحسبان أن جميع البشر يتساوون في القدرة على تطوير الثقافة واستغلال بيئاتهم؟

هذه مجرد نماذج قليلة لأسئلة يمكن طرحها، ولكن لا توجد إجابات قاطعة واحدة لها. ولإجابة هذه الأسئلة، يجب تحليل بيانات موثوقة لتحديد أنماط منضبطة قابلة للتطبيق على مجموعة واسعة من الظواهر التي قد تُشكل نظامًا معينًا. يُعدّ إثبات وجود علاقة بين ظواهر تبدو غير مرتبطة أمرًا ضروريًا لربط السلوك الثقافي بالعوامل البيئية. يُميّز فايدا (١٩٦٩، ١١)، في ملحوظاته التمهيدية، بين طريقتين رئيستين لتحقيق ذلك:

«... إما أن تُظهر أن عناصر السلوك الثقافي تعمل كجزء من أنظمة تشمل أيضًا ظواهر بيئية أو تُظهر أن الظواهر البيئية مسؤولة بطريقة ما عن أصل أو تطور السلوك الثقافي قيد البحث».

يمكن الإشارة إلى هاذين المنهجين باسم التحليل بالارتباط وتحليل السببية. وقد برز تحليل السببية، الذي غالبًا ما يُمثله مفهوم «الحتمية البيئية»، في الأدبيات لمدة من الزمن. ومع ذلك، فضّل الباحثون على نحو مضطرد التفسيرات التي تُركّز على التحليل الدقيق للعلاقات والتفاعلات بين الظواهر، بدل الاكتفاء بتفسيرها من خلال السبب والنتيجة. لا يقتصر هذا المنهج على دراسة العلاقات بين البيئة المادية والسلوك البشري فحسب، بل يتناول أيضًا العمليات التي تنشأ عن هذه التفاعلات والتي تُؤدي لاحقًا إلى فيضٍ جديدٍ من التفاعلات.

على سبيل المثال، ولتفسير نشوء الدولة، يرى بعض الباحثين وجود علاقة سببية بين ظهور الطبقية الاجتماعية وإنشاء أنظمة ريّ زراعية آلية واسعة النطاق (ويتفوغل، ١٩٥٧). وجادل آخرون بأن تطوير شبكات الرّي المتقدمة هو نتيجة تنظيم اجتماعي أكثر تعقيدًا (آدامز، ١٩٦٦؛ ١٩٦٩، ٣٧١). علاوة على ذلك، يرى بعض الباحثين تعاقبًا تطوريًا لتفسير نشوء الحضارات ومراحل المجتمع المختلفة، والذي يراه روبرت كارنيرو بأنه «تجليات ثقافية محددة بدقة... في ظل ظروف محددة لعملية معقدة، ولكنها مفهومة» (كارنيرو ١٩٦٩، ١٤٥). على الرغم من أن نظرية كارنيرو طُرحت في البداية لدراسة مجتمع غابات استوائية يعتمد على الزراعة التقليدية، إلا أن صياغتها العامة تنطبق أيضًا على حالات أخرى. يعزو كارنيرو وجود تنظيم اجتماعي معقد ومستويات عالية من الإنتاج الاقتصادي بشكل رئيس إلى العوامل البيئية والتحفيزية. تُعدّ البيئات «المفتوحة» و«المحدودة» عناصر أساسية ينبغي مراعاتها. وقد تُعزز المنافسة في هذه البيئات المحدودة، إلى جانب تزايد الضغط السكاني والتجارة بين المناطق، هذه العملية. لكن، لا يمكن تفسير هذه العوامل بشكل منفصل عن عوامل مهمة أخرى، مثل وجود أو غياب الحروب بين المجموعات والعناصر الثقافية المشتركة (كارنيرو ١٩٦٩).

إن دراسة جميع النظريات المذكورة أعلاه يمكن أن تُسهم بشكل كبير في فهم أفضل لظهور التعقيدات والتداخلات الاجتماعية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، وهو الموضوع الرئيس لهذه الورقة. ويتجنب هذا النهج حصر تفسير هذه العملية في نظريات قائمة فقط على الصدفة أو الانتشار أو أحداث تاريخية محددة.

ثالثًا: نظرة عامة على جنوب غرب شبه الجزيرة العربية القديمة

أُطلقت أول بعثة أثرية في جنوب شبه الجزيرة العربية عام ١٩٣٧ على يد ج. كاتون تومسون، الذي عمل في حضرموت واكتشف عدة هياكل تعود إلى الحقبة ما بين ٥٠٠ و٢٠٠ قبل الميلاد (كاتون-تومسون وغاردنر ١٩٣٩؛ كاتون-تومسون ١٩٥٣). في خمسينيات القرن العشرين، رعت المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بعثة استكشافية في جنوب شبه الجزيرة العربية بقيادة ويندل فيليبس (فيليبس ١٩٥٥)، وهو مستكشف أمريكي ورجل أعمال نفطي مهتم للغاية بعلم الآثار. كان فيليبس، الملقب بـ "لورنس العرب الأمريكي»، برفقة دبليو. إف. ألبرايت، كبير علماء الآثار لديه. كان ألبرايت، أحد

أشهر علماء آثار الشرق الأدنى الأمريكيين آنذاك، مسؤولاً عن حفريات كبرى وهامة خلال عمل بعثة جنوب شبه الجزيرة العربية (ألبرايت ١٩٥٠).

ضمّت هذه البعثة العديد من العلماء الآخرين الذين ساهموا مساهمة كبيرة في جمع بيانات أثرية مهمة في المنطقة. في عام ١٩٥١، سافر ف. ب. ألبرايت إلى مأرب في اليمن، حيث قام هو وفريقه بالتنقيب في معبد محرم بلقيس، وهو معبد يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد وُضع خصّيصًا للإله المقْه، إله القمر عند السبئيين (ألبرايت ١٩٥٢). كما أسهم ألبرايت بشكل رئيس في أولى عمليات التنقيب في محافظة ظفار بسلطنة عمان (ألبرايت ١٩٥٥؛ ١٩٨٢).

كُرِّست معظم جهود هذه البعثات الاستكشافية المبكرة في جنوب شبه الجزيرة العربية لدراسة تاريخ اليمن المعاصر، لا سيما في مناطق وادي بيحان ومأرب، بالإضافة إلى عُمان. الجدير بالذكر أن غوس فان بيك قام بالتنقيب في مواقع مثل حجر بن حميد، ووضع أول تسلسل تأريخي للخزف القديم في جنوب شبه الجزيرة العربية (فان بيك ١٩٦٩أ؛ فان بيك وآخرون ١٩٦٤)، وهي دراسة أسهمت بشكل كبير في تتبّع التسلسل الزمني للمنطقة. كما قدّم ر. ل. كليفلاند إسهامات قيّمة من خلال فهرسة المجموعة الكبيرة من القطع الأثرية المُسترجعة من مقبرة تمنع. وأصبح فهرسه مرجعًا رئيسا لعلماء آثار جنوب شبه الجزيرة العربية (كليفلاند ١٩٦٥).

ومن الإسهامات المهمة الأخرى في دراسة تاريخ المنطقة عمل ر. ب. سيرجنت، الذي أجرى أول مسح لأنظمة الري في وادي حضرموت (سيرجنت ١٩٥٧؛ ١٩٦٤؛ ١٩٨٨).

أثارت هذه الاستقصاءات المبكرة التي أجراها قليل من المستكشفين والمتخصصين الاهتمام بالمنطقة وسلطت الضوء على محتوياتها الأثرية المتميزة (ديفليرز ١٨٨٩؛ هاريس ١٨٩٣؛ ريحاني ١٩٣٠؛ ستارك ١٩٣٦؛ لويس ١٩٣٨؛ فيلبي ١٩٣٩؛ سكوت ١٩٤٢؛ فخري ١٩٥٢؛ سيجال ١٩٥٥؛ شرف الدين ١٩٦٣). لكن، لم يبدأ البحث الأثري في شبه الجزيرة العربية يتطور ويتقدم قليلاً إلا في سبعينيات القرن العشرين (توسي ١٩٨٦). فعلى سبيل المثال، وفي عام ١٩٧٤، أطلقت هيئة الآثار في المملكة العربية السعودية برنامج المسح الأثري الشامل، بهدف إنشاء جرد للمواقع الأثرية والمعالم داخل البلاد، وكُرّست معظم تلك الجهود في المحافظات الشمالية والشرقية من المملكة (ماسري ١٩٧٧؛ آدامز وآخرون ١٩٧٧).

رغم الأهمية التي لا تُنكر لبرنامج المسح السعودي، إلا أنه لا يزال هناك نقص في منهجية تعميق المعرفة بأصول الحضارات في شبه الجزيرة العربية وتطورها. ولم تُجرَ أي دراسات لتحديد تسلسلٍ لتنوّع الاكتشافات الأثرية، ما أعاق التقييم الصحيح والحقيقي للبيانات السطحية ضمن سياقاتها التاريخية والبيئية (توسي ١٩٨٦). ولا يزال الحال على ما هو عليه في معظم الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية.

ترتبط جيولوجيا ومناخ جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ارتباطًا وثيقًا بجيولوجيا ومناخ أفريقيا، وخاصةً الصحراء الشرقية والمرتفعات الإثيوبية، الواقعة على الجانب الآخر من البحر الأحمر. ومع ذلك، وفي حين تبنّى الجغرافيون مفهوم الاستمرارية البيئية «الصحراوية العربية» تمامًا، لم يتبنَّ علماء الآثار بعدُ نهجًا تكامليًا يُقيِّم بفاعلية الأثر المحتمل لهذه الصلة في تطور العمليات الثقافية في المنطقة (توسي ١٩٨٦، ٤٦٢). بشكل عام، وباستثناء الدور الموثّق جيدًا لحضارة سبأ في تشكيل إمبراطورية أكسوم (فان بيك ١٩٦٧)، لم يُولَ اهتمام كافٍ للعلاقة بين جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وأفريقيا. في هذا الصدد، قدمت الأبحاث التي أجراها توسي (١٩٨٥)، وزارينز وزهراني (١٩٨٥)، وويلكينسون وآخرون (١٩٩٧) على امتداد سهول تهامة الساحلية في المملكة العربية السعودية واليمن بيانات مهمة تُشير إلى وجود أسس لمزيد من استكشاف هذه الصلة.

لم تُحدَّد حدود شبه الجزيرة العربية بتكويناتها التكتونية (المعمارية) فحسب، بل بتنوعها الثقافي أيضًا (توسي ١٩٨٦، ٤٦٣). فضلاً عن الصّدعين الكبيرين في الصفيحة القشرية اللذين شكلهما البحر الأحمر والخليج، فقد أشرنا آنفًا كيف أن الربع الخالي يشغل وسط شبه الجزيرة العربية، مُشكِّلاً مساحة قاحلة شاسعة تفصل شمال شبه الجزيرة العربية عن جنوبها.

من العوامل المهمة الأخرى التي تؤثر في التباين المناخي والبيئي في شبه الجزيرة العربية الرياح الموسمية (توسي ١٩٨٦، ٤٦٣). فالرياح الموسمية الصيفية تهبّ على الهضاب المرتفعة في اليمن من يونيو إلى سبتمبر، والتي تؤثر في عوامل خصوبة الزراعة في المنطقة. وتتدفق الأنهار والجداول والأودية الصغيرة بشكل شبه دائم، حيث تصب إما في السهول الساحلية أو شرقًا وشمالًا على امتداد أطراف الصحراء. وغالبًا ما تُسبّب الأمطار الغزيرة فيضانات مفاجئة، والتي تؤدّي أيضًا بمرور الوقت إلى تصحّر الطبيعة،

ما أوجد أخاديد ووديان ومضايق عميقة شديدة الانحدار على حواف الهضبة المرتفعة. علاوة على ذلك، تتدفق هذه المياه من تجمّعات المياه الجبلية عبر وديان صغيرة تلتقي بأخرى أكبر، ما يخلق نظامًا معقدًا ومترابطًا من الأودية. ساهمت هذه الظواهر في تطور أنظمة إدارة المياه والري في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ القدم وساعدت في تحديد طرق التجارة القديمة عبر حضرموت واليمن.

حدّد الباحثون جغرافية شبه الجزيرة العربية بطرق مختلفة، أبرزت كلها هذا التنوع الكبير والتغيرات فيها. على سبيل المثال، افترض بعض الباحثين بين أواخر خمسينيات وسبعينيات القرن الماضي شبه الجزيرة العربية أنها تمثّل ثلاث دوائر متحدة المركز: مركز صحراوي محاط بدائرة جبلية ودائرة بحرية (انظر، على سبيل المثال، أرامبورغ وآخرون ١٩٥٩، ماكلور ١٩٧١). لكل دائرة من هذه الدوائر أنظمتها البيئية الخاصة، والتي تشمل السهوب الواقعة في منطقة ما قبل الصحراء، والمرتفعات الجنوبية، والسواحل. وقد أثرت هذه الأنظمة تاريخيًا على اقتصاد المنطقة، ما خلق تفاعلًا ديناميكيًا (مفعم بالحيوية) بين البيئات المتنوعة وتخصصاتها الاقتصادية، وهو وضع ذو صلة وثيقة بجنوب غرب شبه الجزيرة العربية القديم (توسي ١٩٨٦، ٤٦٤).

وبالمثل، قسّم باحثون آخرون جنوب غرب شبه الجزيرة العربية إلى أربع مناطق بيئية مختلفة (فان بيك ١٩٦٩ب، ٣٦):

١. سهل ساحلي ضيق ذو تربة مالحة، ورطوبة عالية، ومستوطنات متناثرة للغاية.
٢. سلاسل جبلية موازية لساحل البحر الأحمر وخليج عدن، مع سهول ووديان خصبة مناسبة للزراعة.
٣. الهضاب والوديان الصخرية الداخلية بارتفاع ٢٠٠٠-٤٠٠٠ قدم، مع ندرة هطول الأمطار، ولكن مع وفرة مصادر المياه بسبب جريانها السطحي الكبير من الجبال (الشكل ٢).
٤. مساحة الربع الخالي الشاسعة القاحلة والمقفرة، التي يسكنها عدد قليل من البدو.

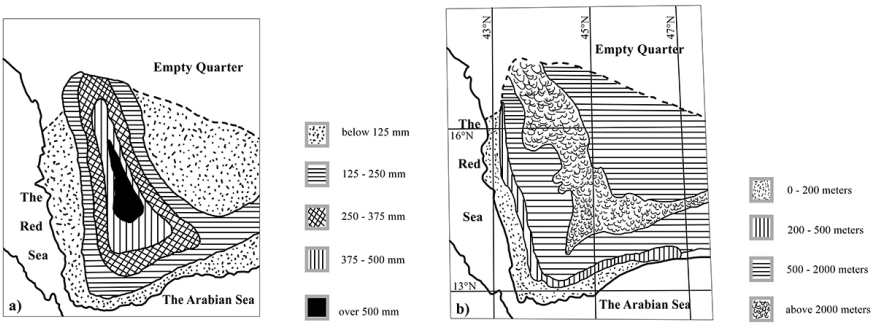

الشكل ٢. أ) توزيع هطول الأمطار في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية؛
ب) ارتفاع الأرض في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.

بينما لا تُظهر المنطقة الأولى سوى أدلة ضئيلة على استيطان بشري قديم، حيث لم يُشجع جفاف الربع الخالي في وجود حياة مستقرة، فإن المنطقتين الثانية والثالثة هما المكان الذي نشأت فيه الحضارات القديمة وازدهرت. كانت المنطقة الجبلية، ولا تزال، ذات أهمية حيوية لبيئة جنوب شبه الجزيرة العربية، إذ تشهد موسمين ممطرين، أحدهما في الربيع والآخر في الصيف، بفعل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية (موتون وسكيتيكاتي ٢٠١٤، ١٤؛ سانلافيل ٢٠٠٠، ٢٠٦).

رغم أن كلا الفارقين الإقليميين يمكن الأخذ بهما نظرًا للتنوع الجغرافي للمنطقة، إلا أننا نفضل النظر إلى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بصفتها منطقة بيئية رئيسة واحدة تتكون من مناطق فرعية متعددة، متمايزة داخليًا، ولكنها مترابطة بشكل كبير. وبربط هذا التنوع البيئي بشبه الجزيرة العربية الحالية، فإن ثلاث مناطق رئيسة لها أهمية خاصة لتطور الحضارات القديمة في المنطقة:

١. اليمن: تشمل هذه المنطقة سهل تهامة الساحلي، الذي يتميز بمناخه الجاف وحقوله الخصبة من الذرة الرفيعة والنخيل. تُعطي الهضبة المرتفعة، بتلالها المتدرجة ووديانها الخصبة، مجموعة متنوعة من المحاصيل، بما في ذلك الفاكهة والحبوب والبن. وقد ساعد هذا الكمّ المتنوّع من الحقول تاريخيًا التنمية الزراعية والتجارة.

٢. حضرموت: تشتهر حضرموت بأنشطتها الزراعية المكثفة، والتي تزدهر في سهول أنهارها ووديانها، حيث يُعدّ القمح والتمر المحصولين الرئيسين. وتُعدّ

المنطقة موطنًا لأنواع مختلفة من الماشية، بما في ذلك الماعز والأغنام المنتشرة في المراعي، والثيران التي تحرث في الحقول، والإبل المستخدمة للنقل، وتُعدّ كلها جزءًا لا يتجزأ من الاقتصاد والثقافة (فان بيك وآخرون، ١٩٦٣، ٥٢٢).

٣. ظفار: تقع ظفار شرق حضرموت، وتتميز بسهل ساحلي صغير ومناخ استوائي رطب فريد من نوعه بفضل تأثير أمطار الرياح الموسمية الصيفية. تشتهر هذه المنطقة بنباتاتها العطرية، مثل اللبان، الذي كان له دور مهم في تشكيل تاريخ التجارة في المنطقة (كون، ١٩٤٥، ٣٨٨).

يتماهى هذا مع ملاحظات موتون وسكيتيكاتي (٢٠١٤) في مقدمة عملهما المرجعي حول عملية الاستيطان في شبه الجزيرة العربية:

«تُمثل هذه المناطق كلها مناطق تماس بين نمطي حياة مترابطين بعمق في شبه الجزيرة العربية: البداوة والثقافة المستقرة القائمة على الزراعة التي تعتمد على الرّي. في عصور ما قبل الإسلام، عاشت المجتمعات الرعوية والبدوية ومربّي الإبل على أطراف الصحاري، وبرعت في حفظ تفاصيل الطرق التي تعبرها. كما وفّرت هذه المناطق أيضًا ملاذًا لمجتمعات استطاعت الاستفادة من المياه المتجمعة بفعل جريانها السطحي في أماكن محددة، بالإضافة إلى الأودية التي تُزرع موسميًا، واستفادت من تدفقات المياه الجوفية، والمنخفضات الطبيعية، لبناء أراضيهم الزراعية وعيش حياة مستقرة.» (موتون وسكيتيكاتي ٢٠١٤، ١٦).

تميزت بداية العصر الحديدي في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بظهور ممالك قديمة (الشكل ٣) اتسمت بإيديولوجية «الدولة» القوية، كما يتضح من النقوش الأثرية، والاقتصاد القائم بشكل أساس على التجارة (أفانزيني ٢٠١٠أ، ٩). تشير الاكتشافات الحديثة للنصوص المكتوبة التي تعود إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد إلى أنه خلال التكوين الأول لهذه الممالك في جنوب شبه الجزيرة العربية، كانت السلطة السياسية متشظية للغاية، مع وجود الكثير من الكيانات السياسية الصغيرة. اختفت هذه الكيانات الصغيرة تدريجيًا، ما أفسح المجال لنشوء ممالك أكبر تهيمن على أراضٍ أوسع وسلطة مركزية أكبر (أرباخ ٢٠٢٢، ١٤).

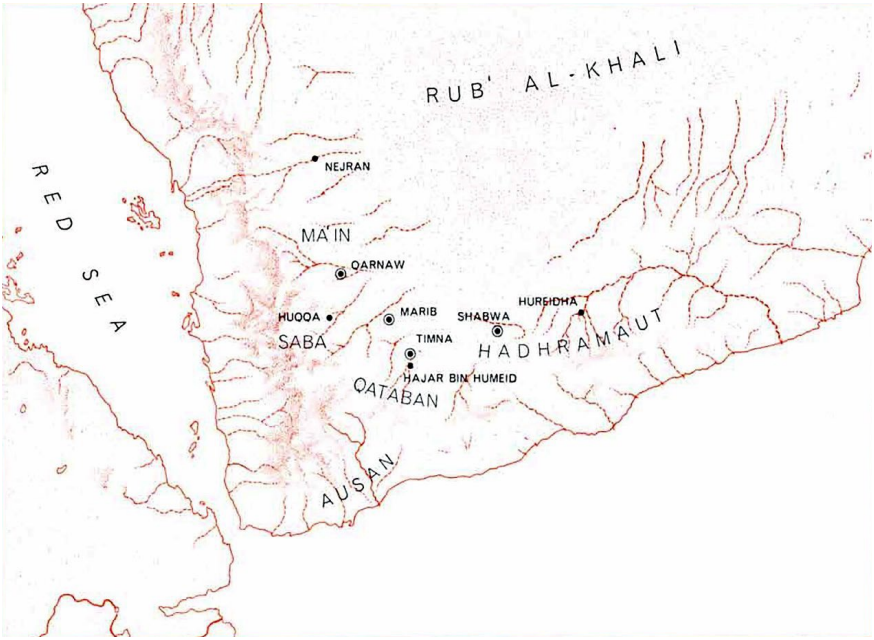

الشكل ٣. توزيع المراكز الرئيسة للممالك العربية الجنوبية، بعد فان بيك (١٩٦٩ب).

مع أننا لن نناقش تاريخ نشوء ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية بالتفصيل هنا، إلا أنه من المهم أن نسلط الضوء على تسلسلها الزمني الطويل والنفوذ المتزايد الذي اكتسبته مع مرور الزمن، والذي استمر حتى الاحتلال الحبشي للمنطقة في القرن السادس الميلادي. ودون أن نُسهب في ذلك، فنورد فيما يلي قائمة بالممالك الرئيسة التي ازدهرت في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، بالإضافة إلى امتدادها الزمني، كما تشير الأدلة الأثرية والنقوش الحالية:

١. مملكة سبأ: تُعدّ أقدم ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية، رغم وجود بعض الخلافات بين العلماء حول أصلها. يُحدّد أحدث بحث أجراه نوربرت نيبس (٢٠٢٣) تاريخًا لتأسيسها في القرن العاشر قبل الميلاد، مع أن دورها السياسي المهيمن يُمكن تأريخه إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. وتقع في اليمن الحالية، وكان مركزها الرئيس مأرب، وانهارت في القرن الثالث الميلادي (أفانزيني ٢٠١٠ب؛ أرباخ ٢٠٢٢).

٢. مملكة حضرموت: تقع في منطقة صحراء صيهد، وهي أقل شهرة مقارنةً بممالك جنوب شبه الجزيرة العربية الأخرى. يمتد تاريخها من بداية الألفية الأولى قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثالث الميلادي، وكان مركزها الرئيس شبوة (فان بيك ١٩٩٧؛ هويلاند ٢٠٠٢).

٣. مملكة قتبان: يمتد تاريخها من أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي. وكانت تقع حول وادي بيحان وكان مركزها الرئيس في تمنع (هويلاند ٢٠٠٢؛ أفانزيني ٢٠١٠ب).

٤. مملكة معين: لا يُعرف سوى القليل عن التاريخ القديم لمملكة المعينيين، ويُعتقد أنها نشأت في نهاية القرن السابع قبل الميلاد واستمرت حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. وتقع على امتداد صحراء صيهد، وكان مركزها الرئيس قرناو (دي مايجريت ٢٠٠٢، أفانزيني ٢٠١٠ب؛ أرباخ ٢٠٢٢).

٥. مملكة حمير: كانت في البداية جزءًا من مملكة قتبان، وحصلت على الاعتراف بها كيانًا مستقلاً في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. كان مركزها الرئيس في ظفار. بعد زمن من التوسع السياسي الناجح، انهارت المملكة في نهاية المطاف في القرن السادس الميلادي، عندما غزتها مملكة أكسوم (أفانزيني ٢٠١٠ب؛ شيتيكاتي ٢٠١٧).

رابعًا: نهضة الحضارة وازدهارها في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية

قبل تقديم لمحة موجزة عن النظريات الرئيسة التي طرحها الباحثون حول نشوء الحضارات وتعقيداتها الاجتماعية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، من الضروري التأكيد على أهمية عاملين رئيسين، هما: نمو التجارة وتطور شبكة متقدمة من أنظمة الري. وقد أدّى كلا العاملين دورًا حاسمًا في تطور البنى الاجتماعية المعقدة في المنطقة.

كانت التجارة هي المؤسسة الاجتماعية الرئيسة التي نشأ حولها نظامٌ معقدٌ للتواصل والعلاقات بين المناطق. لكننا، نفتقر حاليًا إلى دراساتٍ كافيةٍ وأدلةٍ أثريةٍ ذات صلةٍ لتحديد الهيكل الاقتصادي الدقيق الذي كانت تلك التجارة جزءًا منه. ولا يزال الغموض يكتنف مسألة ما إذا كانت قائمةً على المعاملة بالمثل، أو إعادة التوزيع، أو التبادل، أو مزيجٍ منها، ولا يمكن تحديد ذلك إلا عند توفّر المزيد من البيانات لتحديد تسلسل نمو هذه التجارة وتوضيح الهيكل السياسي الداعم لها. ويمكن القول بأن هذه التجارة كانت

تجارةً «محددةً»، حيث كانت السلع، على حد تعبير بولاني، سلعًا ثمينة ثابتة من نوعٍ واحدٍ كانت ذات أهميةٍ في المنطقة، وهي عمليةٌ شائعةٌ في الأنشطة التجارية القديمة (بولاني وآخرون، ١٩٥٧، ٣٠٠).

المثير للدهشة أنه، وعلى الرغم من الأهمية التي لا تخفى لهذه التجارة في اقتصاد شبه الجزيرة العربية قديمًا، فلا تزال المعلومات حول الأسواق المستهدفة وأنواع السلع المتداولة بين جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها محدودة (ماكدونالد ١٩٩٧، ٣٣٣؛ مصري ١٩٩٧). ووفقًا للمصادر القديمة وبعض الإشارات في النقوش القديمة، يبدو أن هذه السلع كانت تتكون أساسًا من نباتات عطرية متنوعة، مثل اللبان والمرّ، والتي كانت تُستخدم لأغراض تتعلق بالطقوس الشائعة آنذاك وأغراض طبية وتجميلية.

يوضح البحث، فيما يتعلق ببداية هذه التجارة، أن تطورها وتوسعها قد بدأ في أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد، بالتزامن مع ظهور نقوش جنوب الجزيرة العربية القديمة وظهور سلطات سياسية أكثر تعقيدًا في المنطقة. ويمكن أن تُعدّ نصوص جنوب الجزيرة العربية «تعبيرًا مباشرًا عن هذه السلطة الجديدة»، في إشارة إلى الممالك الجنوبية العربية الناشئة حديثًا آنذاك (أرباخ، ٢٠٢٢، ١٩). ومن المثير للاهتمام أيضًا، أن طرق تجارة اللبان (الشكل ٤) نادرًا ما تُذكر في نصوص جنوب الجزيرة العربية. فباستثناء بعض النقوش المحلية، توجد إشارات واضحة إلى هذه الطرق بشكل مباشر في نصوص من خارج المنطقة (دي ميجريه، ١٩٩٧، ٣١٥).

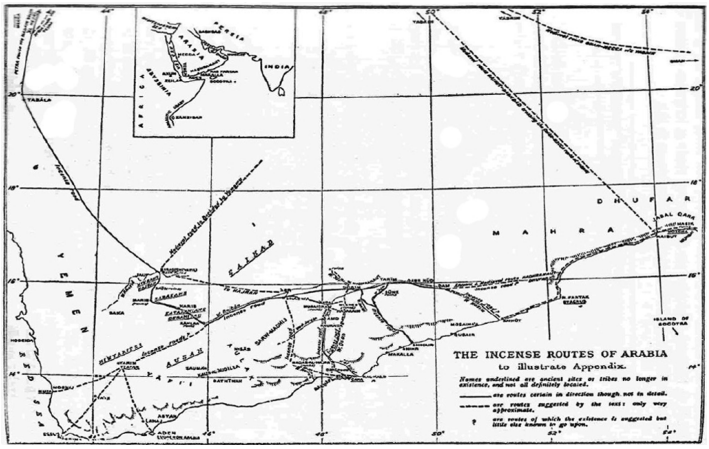

الشكل ٤. خارطة طريق تجارة البخور، بعد ستارك (١٩٣٦).

كما تُلقي المصادر الكتابية المتاحة الضوء على بنية وهيكل طرق التجارة هذه. فعلى سبيل المثال، تكشف هذه المصادر عن تفاصيل حول التجارة بين المناطق، مع وجود طرق تربط عواصم الممالك، حتى في أوقات الحرب. كذلك، تُسلط المصادر الضوء، على الحقوق التجارية لكل مملكة وسلطاتها، التي مارستها على جميع السلع التي تمرّ عبر أراضيها. ويشير هذا الهيكل إلى أن شعوب جنوب الجزيرة العربية اضطرت إلى قبول هيمنة مملكة واحدة في أوقات معينة لتنسيق جهود الأنشطة التجارية وإدارة السيطرة على الطرق (أفانزيني ٢٠١٠ب، ١٨٣). ويتماشى هذا مع الأدلة الأثرية والكتابية الحديثة التي تؤكد الدور المركزي لمملكة سبأ في تجارة البخور (أرباخ ٢٠٢٢، ١٤)، ما يوضح الإطار الاجتماعي والاقتصادي المعقد المطلوب لإدارة إنتاج السلع التجارية وشبكات توزيعها على حدٍّ سواء.

أما فيما يتعلق بتطوير أنظمة الري المصاحبة لظهور كيانات اجتماعية أكثر تعقيدًا، فليس من المستغرب أن تؤدي إدارة المياه دورًا حاسمًا في منطقة قاحلة كجنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ما أتاح تطوير اقتصاد زراعي تكتفي به ذاتيًا تلك الكيانات. واليمن، على وجه الخصوص، هي المنطقة الأكثر شمولًا في البحث، نظرًا لتاريخها العريق في استخدام هياكل آلية معقدة وأساليب متنوعة لتخزين المياه.

هناك إجماع قليل بين الباحثين حول منشأ وأصول الرّي في شبه الجزيرة العربية، وخاصةً فيما إذا كانت التقنيات المحلية قد تطورت بشكل مستقل أم أنها تأثرت بأنظمة إدارة المياه من مناطق أخرى. يُعدّ هذا السؤال عسير الإجابة، لا سيما بالنظر إلى الاختلافات الكبيرة بين أنظمة الرّي. فعلى سبيل المثال، غالبًا ما اعتمدت أنظمة الرّي في مصر وبلاد الرافدين على تحويل المياه من الأنهار الدائمة، بينما اعتمدت أنظمة الرّي في شبه الجزيرة العربية بشكل أساس على استغلال الفيضانات الموسمية المفاجئة، التي تظهر وتختفي بسرعة، ما يزيد من صعوبة إدارتها (هارويز ٢٠٠٨أ).

بدأت التحريات الأثرية والجيومورفولوجية (الدراسة العلمية لأشكال سطح الأرض وأسباب نشأتها وتطورها عبر الزمن) لأنظمة الري في جنوب شبه الجزيرة العربية في ثلاثينيات القرن العشرين من خلال العمل الرائد الذي قام به كاتون-ثومبسون وغاردنر (١٩٣٩) في منطقة حضرموت، تلاها بوين (١٩٥٨) في وادي بيحان. وقد

توسعت جهود البحث بشكل كبير على مدى العقود الأربعة الماضية، ولا سيما بسبب مشروع تتبع أصول الزراعة في جنوب شبه الجزيرة العربية. ركز هذا المسح الأثري، الذي أجري في عام ٢٠٠٤، على تحديد ودراسة أنظمة إدارة المياه على امتداد وادي صنعاء (للحصول على خلاصة للتحقيقات الرئيسة حول أنظمة الري، انظر هارور ٢٠٠٨ب، ٢٠٠٨ج، ومرقتن ٢٠١٧). كما ساهمت الاكتشافات الكتابية بشكل كبير في فهم هذه الأساليب الرائعة لتجميع المياه وإدارتها. وقد قدم أكثر من ٢٥٠ نقشًا من جنوب شبه الجزيرة العربية رؤى قيّمة حول تاريخ أنظمة الري وبنائها وإدارة المياه وأدوارها الاجتماعية والاقتصادية (مرقتن ٢٠١٧، ١١٥).

اكتُشفت أقدم الأدلة الأثرية عن أنظمة الري في جنوب شبه الجزيرة العربية في وادي سناء، ويعود تاريخها إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد. وتمثل هذه البقايا الأثرية المحاولات الأولى للمزارعين الأوائل لاكتساب المعرفة اللازمة لفهم أنماط تدفق المياه والتحكم فيها (هارووير ٢٠٠٨ج). وقد بلغ تطور أنظمة الري ذروته خلال حقبة ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية (مرقطن ٢٠١٧، ١١٥).

يُسلّط مرقطن (٢٠١٧)، في عمله الأخير الضوء على نوعين رئيسين من أنظمة الري، يتميزان بمصادرهما المائية. المصادر الأكثر شيوعًا، بالإضافة إلى الموارد الهيدروغرافية (المياه الموجودة على سطح الأرض وفي باطنها) الأكثر تميزًا في المشهد اليمني، هي المجاري المائية البعلية أو الأودية (إيجر ١٩٨٨). هذان النوعان من أنظمة الري هما:

١. أنظمة الري بالجريان السطحي وتقنيات جمع وتخزين المياه.

٢. أنظمة الري باستخدام المياه الجوفية.

النوع الأول هو أقدم نظام ري، وقد استُخدم لآلاف السنين في المناطق شبه القاحلة والجافة في العالم القديم. في اليمن، وُثِّقت أنظمة عديدة لجمع مياه الأمطار المتدفقة، مثل المصاطب المُستخدَمة على نطاق واسع على سفوح الجبال. وكانت أنظمة الري المُصمَّمة كي تجمع مياه الفيضانات الموسمية، والمعروفة بالعربية باسم «السيل»، ذات أهمية خاصة في اليمن القديم (سيرجنت ١٩٦٤؛ إيجر ١٩٨٨).

تشمل الأنواع الفرعية لأنظمة الري بالجريان السطحي التي حدّدها مرقطن (٢٠١٧، ١١٨-١٢٤) ما يلي:

أ. سدود الري، التي تُحوّل مياه الفيضانات وترفع منسوبها لريّ الحقول. ومن بين هذه السدود سد مأرب الشهير، الواقع على حافة صحراء الربع الخالي، والذي يعود تاريخه إلى بداية الألفية الثانية قبل الميلاد على الأقل. ولم يُعاد بناءه في شكله الحالي إلا في القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد (برونر ٢٠٠٠).

ب. سدود التحكم أو الحواجز، وهي سدود عاكسة تُستخدم على نطاق واسع في الواحات ومرتفعات اليمن.

ج. قنوات الرّيّ، التي تُستخدم غالبًا لريّ بساتين النخيل.

د. قنوات التصريف وقنوات الإمداد الثانوية، التي كانت تُشكل جزءًا مهمًا من أنظمة توزيع المياه.

هـ. بُنيت السدود وصهاريج التخزين بشكل أساس في مرتفعات اليمن، لجمع أو توجيه مياه الجريان السطحي من مناطق تجمّع المياه لتخزينها.

النوع الثاني، وهو أنظمة الرّيّ باستخدام المياه الجوفية، يشمل الآبار وأنظمة الرّيّ بالغمر. ولطالما كانت الآبار من أكثر طرق الرّيّ شيوعًا وتميزًا في شبه الجزيرة العربية، وخاصة في الجنوب، وقد ذُكرت كثيرًا في الأدبيات العربية القديمة. تصل هذه الآبار الاصطناعية إلى منسوب المياه الجوفية، مستفيدةً من خزانات المياه الموجودة في الصخور البركانية المتشكلة حديثًا والمتوفرة بكثرة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (برونليش ١٩٢٥، ٨).

ورغم توثيق أنظمة الرّيّ بالغمر في كل من اليمن القديم والحديث، إلا أنها لم تخضع لدراسة وافية. تتضمن هذه الطريقة تخزين المياه في خزانات قبل توزيعها على الحقول.

تعكس أنظمة الرّيّ المختلفة المستخدمة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية المستوى المتقدم للتقنية المحلية في النشاطات الزراعية. ومع ذلك، فالأهم من ذلك في بحثنا هذا هو التأثير الاجتماعي لهذه الأنظمة في تشكيل الكيانات السياسية والاقتصادية والثقافية لحضارات جنوب شبه الجزيرة العربية.

اقتضى تصميم وبناء هذه الأنظمة معرفةً خاصة، بما في ذلك إدارة حشودٍ عاملة كبيرة لبنائها وتشغيلها وصيانتها (Harrower 2008c, 187). وكان التنظيم والتخطيط على مستوى رفيع أمرًا بالغ الأهمية لضمان كفاءة تشغيلها، وممارسة رقابةٍ فاعلةٍ على

استخدام المياه وإدارتها وتوزيعها. وتُقدّم العديد من النصوص المنقوشة رؤىً ثاقبة حول الكيان السياسي اللازم لإدارة المياه، لا سيما فيما يتعلق بملكية أنظمة الرّي ووجود مكاتب إدارية يتولى موظفوها أدوارًا متنوعة، من التفتيش إلى إدارة الموارد المائية، وكلها تُشير إلى سيطرة قوية للدولة.

بعد أن تناولنا بإيجاز الأدوار المحورية لأنظمة التجارة والرّي في تشكيل وتطور المجتمعات المركّبة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، سنستعرض الآن النظريات الرئيسة المتعلقة بجذور وأصول الحضارة في هذه المنطقة والتفاعل بين العوامل البيئية ونمو هذه الحضارات من منظور بيئي. إن النهج الشامل الذي يأخذ بالحسبان العوامل البيئية والاجتماعية والثقافية أمر ضروري لفهم كيفية تطور الحضارات في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بمرور الوقت. ومن الضروري أيضًا النظر إلى منطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بوصفها منطقة بيئية رئيسة، تضمّ مناطق فرعية مترابطة جزئيًا وكليًا.

تغطي هذه المنطقة حوالي ٧٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع (الشكل ١)، وهي تتجاوز بكثير المساحة التي وصفها المؤرخون اليونانيون والرومانيون بـ "بلاد العرب السعيدة». كما أنها أكبر من الأراضي التي وثّقها المؤرخون العرب والمسلمون في الألفية الأولى الميلادية، والذين كانوا أول من حاول تتبع أصول ومنشأ سكان جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (الجبوري ١٩٦٨؛ علي ١٩٦٨). وقد أدّت جهودهم إلى استنتاج أن العرب لديهم تراث أجداد ثنائي مزدوج، مع قحطان في الجنوب وعدنان في الشمال (كامل ١٩٦٨، ٩).

يُظهر أقدم ذكرٌ معروفٍ للعرب في النقوش البابلية التي تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد. وتعود الإشارات اليونانية والرومانية إلى القرن السادس قبل الميلاد، بما في ذلك أعمال إسخيلوس وهيرودوت وثيوفراستوس وديودوروس الصقلي وسترابو وبلينيوس (كاميل ١٩٦٨، ٢٩). وقد بدأت المصادر العربية بالظهور في النصف الأول من القرن السابع الميلادي. لكن، هذه المصادر الأدبية ظلّت منفصلة إلى حدّ كبير حتى مطلع القرن الثامن عشر. قام الأب بايز بمحاولة مبكرة لترجمة هذه النصوص في عام ١٥٩٠، ولكن عمله مُنيَ بالتجاهل والإهمال إلى حدّ كبير حتى الحملة الدنماركية في ستينيات القرن الثامن عشر، والتي أشهرت رسام الخرائط كارستن نيبور بسبب خرائطه الدقيقة للغاية لشبه الجزيرة العربية (كاميل ١٩٦٨، ٥٥).

مع تزايد الاهتمام الأكاديمي بالحضارات المصرية القديمة وحضارة بلاد ما بين النهرين، بدأ الباحثون المستشرقون في استكشاف جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بوصفها مركزًا مستقلاً. مع ذلك، ظلت فكرة الأصول السامية للثقافة العربية مهيمنة في الفكر الأكاديمي. على سبيل المثال، في عام ١٨٧٣م، أشار المستشرق والسياسي ألفريد فون كريمر بأن الساميين هاجروا من الهلال الخصيب إلى جنوب شبه الجزيرة العربية حتى قبل الهجرة الهندية الآرية (فون كريمر ١٨٧٣). عُرف هذا التفسير باسم «النظرية البابلية» (كامل ١٩٦٨، ٥٦).

يعتقد آخرون، مثل سبرينغر (١٨٧٥)، أن سكان جنوب الجزيرة العربية هم من السكان الأصليين، وأن أصولهم تعود إلى منطقة نجد في وسط الجزيرة العربية. ووفقًا لهذا الرأي، فقد انتقلوا من نمط حياة بدوي في الصحاري الوسطى إلى الزراعة في الجنوب.

هناك نظرية أخرى تقول بأن شمال وشرق إفريقيا كانا الموطن الأصلي للساميين، شمالاً وجنوباً، استنادًا في المقام الأول إلى خصائصها الطبيعية. وقد طرح هذه الفكرة عدد من العلماء، منهم المستعرب والرحالة ويليام جيفورد بالغريف، وعالم الآثار والإثنولوجيا الأمريكي دانيال غاريسون برينتون، وعالم الدراسات الإسلامية ويلفريد كانتويل سميث، وغيرهم (كاميل ١٩٦٨، ص ٥٧).

القاسم المشترك بين هذه النظريات وغيرها هو التأكيد على الهجرة المفاجئة للسكان واستقرارهم في مناطق جديدة، وهو ما كان له آثار بيئية كبيرة. نتيجة لذلك، استُخدم مفهوم «القحط» لتفسير أنماط الهجرة في جنوب غرب الجزيرة العربية، ليس هذا فقط، بل أيضاً لتفسير العوامل التي أدت إلى تطور تنظيمها الاجتماعي المعقد ونموها وازدهارها. تفترض النظرية الأولى، التي كان هنتنغتون أبرز مؤيديها، أنه على الرغم من ارتباط جنوب غرب الجزيرة العربية ببقية شبه الجزيرة العربية عبر تاريخها، إلا أنها حافظت على أنماط ثقافية متميزة وتنظيم اجتماعي مختلف اختلافاً جوهرياً.

ترتبط بهذه الفكرة حجتان رئيستان تتعلقان بنشأة الحضارة والمناخات الجافة المتكررة التي يُفترض أنها تسببت في هجرة جماعية من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية. تدعم إحدى الحجج فكرة أن حِقَب المناخ الجاف أدت إلى مجاعات وهجرة سكانية من المنطقة. أما الحجة الأخرى فترفض هذا الاحتمال، وتتبنّى بدلاً من ذلك

نظرية تستند فقط إلى عوامل اقتصادية وسياسية، مثل ضعف النشاط التجاري وضعف سلطة الحكومة المركزية (كامل ١٩٦٨، ٧١).

يرى آخرون أن المسألة لا تتعلق بالتغيرات المناخية الكبرى، بل بحدوث تحولات طفيفة وهامشية في مناطق تركيز «الضغط المرتفع» في شرق إفريقيا وشبه الجزيرة العربية. ووفقًا لهذه النظرية، تتأثر الرياح الغربية الرطبة التي تنشأ من هذه المناطق بشكل كبير بالتغيرات في توزيع «الضغط المرتفع» على مستوى المنطقة، ما يؤثر بدوره على اتجاه هطول أمطارها (الشكل ٥). ومن ثم، يُعتقد أن هذه التحولات تسبب تغيرات كبيرة في هطول الأمطار في مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (كو ١٩٦٥)، وهو جوهر قضية «القحط».

تُؤكد هذه الفرضية البديلة، التي تُركز على العوامل الاقتصادية والسياسية بصفتها أسبابًا رئيسة لنهضة حضارة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وتدهورها، على فشل الكيانات السياسية في المنطقة في التوحّد فعليًا تحت سلطة واحدة في مراحل تاريخية مُعينة. وقد حال هذا الفشل دون تنسيق الجهود اللازمة للحفاظ على البنية التحتية الأساسية، مثل أنظمة الرّي. علاوة على ذلك، فقد ساهم تراجع التجارة، لا سيما بعد صعود الإمبراطورية الرومانية القوية وانحسار تقاليد حرق الجثث كممارسة دفن متبعة على نطاق واسع – والتي كانت في السابق من أهم أسباب الطلب على النباتات العطرية اليمنية – في انهيار المنطقة (كامل ١٩٦٨، ٧٦).

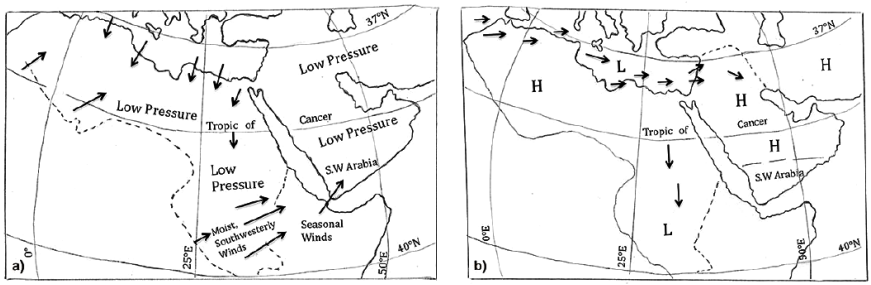

الشكل ٥. أ) رسم بياني لتوزيع الضغط والرياح خلال الانقلاب الصيفي في العالم العربي؛
ب) رسم بياني لتوزيع الضغط والرياح خلال الانقلاب الشتوي في العالم العربي.

ختامًا، من المهم أن نشير إلى نظرية فان بيك (١٩٦٩)، التي تقول بأن صعود الحضارة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كان مدفوعًا بنمط هجرة بدأ حوالي

منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد. وتشير هذه النظرية إلى أن الهجرة انبثقت من أطراف الهلال الخصيب، وتحديدًا شرق الأردن وجنوب العراق. ووفقًا لفان بيك، أدخلت هذه الهجرة ثقافة متطورة ذات أساليب تقنية وتنظيمية متقدمة، ما مكّن الوافدين الجدد من التكيف مع البيئة المحلية. ويقال إن هذا التدفق الثقافي قد حقق مستوى من الإنتاج والنمو يضاهي المراكز الحضارية الرئيسة الأخرى في الشرق الأدنى. ويعزو فان بيك الهجرة إلى عاملين رئيسين: الاكتظاظ السكاني في أوطان المهاجرين وانتعاش التجارة ورغد العيش في المنطقة المحيطة بمأرب، المعروفة بسلعها الفاخرة. ويُظنّ أن هذين العاملين هما الدافعان لنمط الهجرة المشار إليه آنفًا (فان بيك ١٩٦٩، ٣٩-٤٠). لكن، هذه الفكرة، على ما يبدو ليست مدعومة إلا بقدر ضئيل من الأدلة المتاحة.

خامسًا: الخاتمة

استعراضنا هذا للنظريات الرئيسة المتعلقة بصعود وانحدار الحضارات القديمة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ليس شاملًا. فهو يركز في المقام الأول على وجهات نظر الباحثين السابقين، وخاصة المستشرقين والباحثين في الجوانب الإسلامية من القرنين التاسع عشر والعشرين. ولم نتعمق في الآراء الأكاديمية الحديثة، الأمر الذي يقتضي تحليلاً أكثر شمولاً للاستقصاءات الأثرية التي أجريت في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية على مدى العقود القليلة الماضية. وقد بحث في هذه الاكتشافات الحديثة بعمق مؤلفون مثل هويلاند (٢٠٠٢)، وفرانكه وجيرلكس (٢٠١١)، وماجي (٢٠١٤)، وموتون وسكيتيكاتي (٢٠١٤)، وأفانزيني (٢٠١٠أ، ٢٠١٠ب)، وأرباخ (٢٠٢٢)، وغيرهم.

تاريخياً، انقسمت وجهات نظر العلماء عموماً إلى فرضيتين رئيستين. الفرضية الأولى تتعامل مع البيئة بوصفها عاملًا رئيسًا في تشكيل الحضارة وعملية ذات طبيعة بيئية. في المقابل، ترفض الفرضية الأخرى العوامل البيئية وتطرح نظرية تعتمد فقط على الجوانب السياسية والاقتصادية.

يمكن إثارة العديد من الاعتراضات النظرية والتجريبية على هذه الصيغ. لكن، ورغم استنادها إلى حدّ كبير على أدلة محدودة، تُقدم هذه النظريات تفسيراتٍ قيّمة، تُبرز التفاعل المعقد بين الظروف البيئية والتطور المجتمعي. نعتقد أن الافتراضات المتعلقة

بالظروف المناخية الجافة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ودورها في نمو المنطقة وحضارتها، هي في الواقع عوامل بيئية يجب ربطها ببعضها. إلا أن الخلاف هنا يكمن في أنه لا يمكن الجزم بتأثير عامل بيئي واحد بشكل قاطع في تطور التنظيمات الاجتماعية والسياسية المعقدة. بل إن الشبكة المعقدة من العلاقات والتفاعلات بين العناصر الفسيوغرافية (المظاهر الطبيعية التي تشكل سطح الأرض) المستقرة، والسمات البيئية، و«مستوى التكامل الاجتماعي والثقافي» هي التي تُحرّك هذه العملية.

إجمالًا، يمكن فهم نشأة ونمو حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية على أنها تطورات جوهرية متأصلة في بيئة تُوصف بأنها «محصورة» ومحدودة. سكنت هذه المنطقة مجموعات قبلية كبيرة تشترك في أنماط ثقافية متشابهة، ورغم احتفاظها بخصائص فردية مرتبطة بالمنطقة الفرعية التي نشأت فيها، إلا أنها قبلت الاندماج ضمن نظام سلطة واحد. وتدعم فكرة « المنطقة المحصورة» الأراضي الصحراوية الشاسعة شمالاً وشرقاً، ومحيطها من الغرب المطوّق بمسطح مائي، مع شريط ساحلي ضيّق يحدّه هضبة تعلو فجأةً من الشرق.

وقد جدت شعوب جنوب غرب شبه الجزيرة العربية حوافز اقتصادية في الإنتاج واسع النطاق للسلع الخاصة بالمنطقة. ويتجلى ذلك في نظام تجاري معقّد ربط ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية على المستوى الإقليمي، وسهّل التواصل مع الحضارات الأخرى داخل شبه الجزيرة وخارجها. علاوة على ذلك، مكّنت التقنيات المتقدمة التي تطورت بمرور الوقت لتخزين المياه والرّي، من توسيع رقعة الزراعة المكثفة لإنتاج الغذاء المعيشي وزراعة السلع التجارية، وخاصة النباتات العطرية التي أصبحت رمزًا اقتصاديًا لمنطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، وخاصة اليمن.

ولا يمكن أن تتهيأ الظروف اللازمة لظهور الحضارات القديمة ونموها في المنطقة إلا بوجود مجموعة من العوامل، مثل الخصائص البيئية الفريدة للمناطق الفرعية التي تشكل جنوب غرب شبه الجزيرة العربية والتطورات الاجتماعية والثقافية التي تطورت بمرور الوقت. وهذا يؤكد أهمية تطبيق مقاربة بيئية لفهم الديناميكيات المعقدة التي تؤدي إلى ازدهار الثقافات بشكل أكبر، مع التأكيد على ضرورة تفسير الشواهد الأثرية بشكل شامل، مع مراعاة سياقاتها البيئية، والتاريخية، والاجتماعية، والثقافية.

المراجع

BIBLIOGRAPHY

- Bräunlich, E., The Well in Ancient Arabia, Leipzig: Verlag Der Asia Major, 1925. British Museum (Natural History). Expedition to South West Arabia, 1937-1938, Vol. I. London, 1941.
- Brunner, U., "The Great Dam and the Sabean Oasis of Ma'rib". Irrigation and Drainage Systems 14 (3), 2000: pp. 167-182.
- Carneiro, R.L. "Slash-and-Burn Agriculture Among the Kuikuru," in Y. Cohen, editor, Man in Adaptation, Vol. II. Chicago: Aldine Publishing Co., 1969: pp. 131-145.
- Caton-Thompson, G., "Some palaeoliths from south Arabia", in Proceedings of the Prehistoric Society, 19 (Issue 2, December), 1953: pp. 189-218.
- Caton-Thompson, G. and Gardner, E.W., "Climate, irrigation and early man in the Hadhramaut". The Geographical Journal, 93 (Vol. 1, January), 1939: pp. 18- 38.
- Cleveland, R.L. An ancient South Arabian Necropolis. Objects from the second campaign (1951) in the Timnaʿ Cemetery. Publications of the American Foundation for the Study of Man 4. Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1965.
- Coon, C.S., "Southern Arabia, a Problem for the Future", An original article from the Report of the Smithsonian Institution, 1944. U.S. Government Printing Office, 1945: pp. 385-402.
- de Maigret, A., "The frankincense road from Najrān to Maān: a hypothetical itinerary", in Profumi d'Arabia. Atti del convegno. «L'Erma» di Bretschneider. Roma, 1997: pp. 315332.
- de Maigret, A., "A Bronze Age for southern Arabia". East and West 34, 1984: pp. 5-36.
- de Maigret, A., Arabia Felix (translated Rebecca Thompson). Stacey International, London, 2002.
- Deflers, A. Voyage Au Yemen, Journal d'une Excursion botanique, Paul Klincksieck, editor. Paris, 1889.
- Eger, H., Runoff Agriculture. A Case Study about the Yemeni Highlands, (Jemen-Studien 7). Stuttgart: Reichert, 1988.
- Edens, C., "The Bronze Age of Highland Yemen: Chronological and Spatial Variability of Pottery and Settlement". Paléorient, 25 (2), 1999: pp. 105-128.

- Fakhry, Ahmed. An Archaeological Journey to Yemen, Parts I, II, and III, Cairo: Government Press, 1952.
- Franke, U. and Gierlichs, J. (editors), Roads of Arabia: Archaeological Treasures from Saudi Arabia. Staatliche Museen zu Berlin, 2011.
- Harris, Walter B., Journey Through the Yemen, London: William Blackwood & Sans Ltd., 1893.
- Harrower, M.J., "Dams and Irrigation in Ancient Arabia", in Encyclopaedia of the History of Science, Technology, and Medicine in Non-Western Cultures. Springer, Dordrecht, 2008a: pp. 1483-1487.
- Harrower, M.J., "Hydrology, Ideology, and the Origins of Irrigation in Ancient Southwest Arabia". Current Anthropology 49 (3), 2008b: pp. 497-510.
- Harrower, M.J., "Mapping and dating incipient irrigation in Wadi Sana, Ḥaḍramawt (Yemen), in Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, 2008, Vol. 38. London, 2008c: pp. 187-201.
- Hoyland, R.G., Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam. London, Routledge, 2002.
- Kamil, Mahmood. A., Al-Yaman. North and South. Beirut, 1968.
- Kuo, W.S., "A study of weather over the Arabian Peninsula". Meteorological Bulletin 11(2), 1965: pp. 25-35.
- Lewis, Norman. Sand and Sea in Arabia, London: George Routledge & Sons Ltd., 1938.
- MacDonald, Michael C.A., "Trade routes and trade goods at the northern end of the 'Incense Road' in the first millennium BC", in Profumi d'Arabia. Atti del Convegno. «L'Erma» di Bretschneider. Roma, 1997: pp. 333-349.
- Magee, P., The archaeology of prehistoric Arabia: adaptation and social formation from the neolithic to the Iron Age. Cambridge University Press. New York, 2014.
- Masry, Abdullah Hassan. "Notes on the Recent Archaeological Activities in the Kingdom of Saudi Arabia", in Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 7, 1977: pp. 112–119.
- Prehistory in Northeastern Arabia: The Problem of Interregional Interaction. Kegan Paul International, London, 1997.

- McClure, H.A., The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations. Miami, Fla, Field Research Projects, 1971.
- Mouton, M. and Schiettecatte, J., In the Desert Margins. The settlement process in ancient South and East Arabia. Arabia Antica 9. «L'Erma» di Bretschneider. Roma, 2014.
- Nebes, N., "Early Saba and Its Neighbors", in The Oxford History of the Ancient Near East: The Age of Persia. Vol. 5. Oxford University Press, 2023: pp. 299–375.
- Philby, H. St. J. B. Sheba's Daughters, London: Methuen and Co, Ltd, 1939.
- Polanyi, K., Arensberg, C.M. and Pearson, H.W. (editors), Trade and Markets in Early Empires. The Free Press, Chicago, 1957.
- Rihani, Ameen. Arabian Peak and Desert, Travels in Al-Yaman, Boston: Hanghiton Mifflin Co., 1930.
- Salzman, Phillip Carl and Attwood, Donald W., "Ecological Anthropology" in Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology. Alan Barnard and Jonathan Spencer, eds. London: Routledge, 1996: pp. 169-172.
- Sanlaville P., Le Moyen-Orient arabe: le milieu et l'homme. Paris: Armand Colin, 2000.
- Scott, Hugh. In the High Yemen, London: John-Marray, 1942.
- Segall, B., "Sculpture from Arabia Felix, the Hellenistic Period", American Journal of Archaeology, Vol. 59, 1955: pp. 207-214.
- Serjeant, R.B. "The Saiyids of Hudhramawt". An Inaugural Lecture delivered on 5 June 1956. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, 1957.
- _____. "Some Irrigation Systems in Hadhramawt", Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1964: pp. 33-76.
- _____. "Observations on irrigation in Southwest Arabia", in Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 18, 1988: pp. 145–153.
- Seymour-Smith, Charlotte. Dictionary of Anthropology. Boston: G. K. Hall and Company, 1986.
- Schiettecatte, J., "Himyar". The Encyclopedia of Ancient History. John Wiley & Sons, 2017: pp. 1–2.

- Sharaf al Din, Ahmad. Al-Yaman Abra-al-Tarikh. Cairo: Maktabat Al-Sunnah, 1963.
- Sprenger A., Die alte Geographie Arabiens als Grundlage der Entwicklungsgeschichte des Semitismus. Bern, 1875.
- Stark, Freya. The Southern Gates of Arabia, U.S.A.: E. P. Dutton & Co., 1936.
- Tosi, M., "Tihamah Coastal Archaeology Survey". East and West 35, 1985: pp. 363-369.
- Tosi, M., "The Emerging Picture of Prehistoric Arabia". Annual Review of Anthropology, Vol. 15, 1986: pp. 461-490.
- Van Beek, Gus W., "Monuments of Axum in the light of south Arabian archaeology". Journal of the American Oriental Society 87 (2), 1967: pp. 113-22.
- Van Beek, Gus W., Hajar Bin Humeid: Investigations at a Pre-Islamic Site in Saudi Arabia. Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1969a.
- Van Beek, Gus W., "The Rise and Fall of Arabia Felix", Scientific American 221 (6, Dec.), 1969b: pp. 36-47.
- Van Beek, Gus W., "Ḥadhramaut", in The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. Vol. 2. Oxford University Press, 1997: pp. 452–453.
- Van Beek, Gus W., Cole, Glen H., Jamme, A. "An Archaeological Reconnaissance in Hadhramawt, South Arabia. A Preliminary Report", Annual report of the Board of Regents of the Smithsonian Institution, 1963. Washington, 1964: pp. 521- 545.
- Vayda, Andrew P., editor. Environment And Cultural Behavior: Ecological Studies in Cultural Anthropology. The Natural History Press, 1969.
- von Kremer, A., Kulturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiet des Islams. Leipzig, 1873.
- Wendell, Phillips, Qataban and Sheba: Exploring the Ancient Kingdoms on the Biblical Spice Routes of Arabia. San Diego, Harcourt, Brace & Co., 1955.
- Wilkinson, T. J.; Edens, C. and Gibson, M., "The archaeology of the Yemen High Plains: a preliminary chronology". Arabian Archaeology and Epigraphy 8 (1), 1997: pp. 99–142.
- Wittfogel, K. A. Oriental Despotism, New Haven: Yale University Press, 1967.
- Zarins, J. and Zahrani, A., "Recent Archaeological Investigations in the Southern Tihama Plain (The Sites of Athar and Sihi, 1404/1984)". Atlal 9, 1985: pp. 65–107.

نبذة عن الكتّاب

د. عبدالله حسن مصرى، وكيل وزارة سابقا لشؤون الآثار والمتاحف, محاضر فى جامعة الملك سعود سابقا تخرج بشهادة الدكتوراه فى جامعة شيكاغو بأمريكا عام ١٩٧٣ فى علم الأنثروبولوجى/الآثار الإهتمامات البحثية: عصور ماقبل التاريخ فى الجزيرة العربية. التطورات الثقافية والمجتمعات البدائية.

د. مارتينا رينزي هي عالمة آثار وخبيرة في التراث الثقافي، وتضم مسيرتها المهنية أكثر من عشرين عامًا من البحث والعمل الميداني والممارسات المتعلقة بالتراث في جميع أنحاء الشرق الأوسط. تلقت تدريبها في إيطاليا وإسبانيا، وشغلت مناصب أكاديمية وبحثية في كلية لندن الجامعية - قطر، حيث قادت مشاريع علمية كبرى وساهمت في تدريس برامج الدراسات العليا والإشراف الأكاديمي. لاحقًا، أسهمت في مبادرات تراثية رئيسية ضمن بعض مشاريع السعودية العملاقة، لا سيما مشروع بوابة الدرعية ومدينة القدية، حيث ساهمت في صياغة استراتيجيات أثرية وحماية التراث وبرامج البحث التعاوني يجمع عملها بين علم الآثار، وإدارة التراث، وتطوير السياسات، والدمج الدقيق للتراث ضمن سياقات التخطيط، مما يربطه بمنظورات تاريخية وبيئية وثقافية أوسع. لقد نجحت في تأمين تمويلات بحثية كبيرة، وبناء تعاونيات دولية، ونشرت على نطاق واسع في المجلات المحكمة والكتب وملخصات المؤتمرات. يواصل التزام د. رينزي الطويل الأمد بالأثار العربية، إلى جانب حرصها على ربط أشكال المعرفة المتنوعة، توجيه جهودها لتعميق فهم ماضي المنطقة وحماية تراثها.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

مؤسسة غير حكومية مستقلة مقرها مدينة الرياض، بالمملكة العربية السعودية. وقد تأسس المركز عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، من قِبَل مؤسسة الملك فيصل من أجل الحفاظ على إرث المغفور له الملك فيصل ومواصلة رسالته النبيلة في نشر العلم والمعرفة بين المملكة وبقية دول العالم. يُعدُّ المركز منصة للبحوث والدراسات الإسلامية والمعاصرة، تجمع الباحثين ومراكز الأبحاث من المملكة وحول العالم، من خلال المؤتمرات وورش العمل والمحاضرات، وإنتاج ونشر الأعمال الأكاديمية، وأيضًا من خلال الحفاظ على المخطوطات الإسلامية. ويهدف المركز إلى توسيع نطاق المؤلَّفات والبحوث الحالية لتقديمها إلى صدارة النقاشات والاهتمامات الأكاديمية، مُتتبّعا إسهامات المجتمعات الإسلامية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والفنون، والآداب قديماً، وحديثاً.

تضم إدارة البحوث بالمركز مجموعة من الباحثين المرموقين والواعدين الساعين إلى إنتاج أبحاث وتحليلات متعمقة في مختلف المجالات، كالدراسات الثقافية، وعلم الاجتماع الاقتصادي، والدراسات الإفريقية، والدراسات الآسيوية، بالإضافة إلى الدراسات اليمنية.

يحتوي المركز على المكتبة التي تحتفظ بمخطوطات إسلامية نفيسة، وقواعد بيانات ضخمة في مجال العلوم الإنسانية، كما يضم إدارة المتاحف التي تحتوي على ست مجموعات قيمة يحفظها المركز، ويحتوي كذلك على متحف الفن العربي الإسلامي.

ويضم المركز «دار الفيصل الثقافية»، وهي ذراعه التنفيذية فيما يتصل بصناعة النشر؛ حيث تقوم الدار بإصدار الكتب والمجلات الثقافية والمحكَّمة، كما يضم «دارة آل فيصل» التي تُعنى بتوثيق سيرة الملك فيصل وأبنائه، وحفظ تراثه.

لمزيد من المعلومات يُرجى زيارة موقع المركز https://kfcris.com/ar

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

ص.ب ٥١٠٤٩ الريـــــاض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٥٥٥٥٠٤ (١١ ٩٦٦+) - فاكس: ٤٦٥٩٩٩٣ (١١ ٩٦٦+)
بريد إلكتروني: research@kfcris.com